سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾

إِنَّ أَجَلَ الله : وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا.

سيدنا نوح عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم - عليه السلام - وقد لخّص القرآن هنا فحوى رسالته التي عرضها على الفاسدين من أهل زمانه في النقاط الثلاث التالية : العبادة، التقوى، وإطاعة الرسول . يعني التخلي عن عبادة غير الله وإفراد الله وحده بالعبادة دون شريك ، وتأسيس الحياة الدنيا على تقوى الله وخشيته ، وأخيراً اعتبار الرسول هو القدوة في كل شأن من شؤون الحياة ، وهذه النقاط تمثل دعوة جميع الأنبياء المرسلين على اختلاف الأزمنة والأمكنة، كما أنها هي جوهر دعوة القرآن الكريم كذلك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم

مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم
مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

فِرَاراً: تباعداً ونفاراً عن الإيمان.

وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ: بالغوا في التغطي بها كراهة لي.

وَأَصَرُّوا: تشددوا وانهمكوا في الكفر.

يُرْسِلِ السَّمَاءَ: المطر الذي في السحاب.

مِّدْرَاراً: غزيراً متتابعاً.

لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً: لا تعتقدون أو لا تخافون عظمة الله.

خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً: مُدَرِّجا لكم في حالات مختلفة.

سَمَوَاتٍ طِبَاقاً: كل سماء مقببة على الأخرى.

نُوراً: منوراً لوجه الأرض في الظلام.

الشَّمْسَ سِرَاجاً: مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام.

أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ: أنشأكم من طينها.

الأَرْضَ بِسَاطاً: فراشاً مبسوطاً للاستقرار عليها.

سُبُلاً فِجَاجاً: طرقا واسعات.

يتضح من خطبة نوح هذه أنه قد اختار لدعوته الأسلوب نفسه الذي تبناه القرآن لإقناع الناس بما يدعوهم إليه، حيث عرض عليه السلام دعوته مستَدِلاً بشتى الظواهر الكونية، كما خاطب قومه بكل الطرق الممكنة سراً وعلانيةً، وعلى المستويَيْن الفردي والجماعي،وقد استنفد كل طاقته في سبيل إصلاحهم وإرشادهم إلى الحق ، ولكنهم أبوا الإيمان بدعوته وتمادوا في غيّهم وطغيانهم يعمهون ، وقال ابن عباس في تفسير قوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته [1].

ومن هذا نعلم أن قوم نوح كانوا يسلِّمون بوجود الله، إلا أن الشعور بعظمة الله وجلاله لم يكن مستولياً على نفوسهم كما ينبغي، والحقيقة أن هذا هو المعيار الحقيقي لعبادة الله وعبوديته .. فمن يعيش هنا وقلبه مملوء بعظمة الله، فهو عابد لله حقاً، وأما من كان قلبه خاوياً من الإحساس بعظمة الله فليس من عباد الله وعبوديته في شيءٍ !

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

خَسَاراً: ضلالاً في الدنيا وعقاباً في الآخرة.

مَكْراً كُبَّاراً: بالغ الغاية في الكفر.

وَداً: أصنام عبدوها ثم انتقلت إلى العرب ، فكان ود لكلب.

سُوَاعاً: وسواع لهذيل .

---

(١) تفسير الطبري ٢٩/ ٥٩ .

يَغُوثَ: ويغوث لغطفان.

وَيَعُوقَ: ويعوق لهمذان.

وَنَسْراً: ونسر لآل ذي الكلاع من حمير.

مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ: من أجل ذنوبهم و"ما" زائدة.

لماذا قوبلت دعوة نوح - عليه السلام - من جانب قومه بالرفض والإنكار ؟ لقد كان السبب في ذلك أن كلام نوح بدا للقوم أقل قيمةً ووزناً من كلام أولئك الذين كانوا يحتلون يومئذٍ مراكز السيادة والكبرياء والوجاهة الدنيوية ، فبينما جحد كبار العصر بدعوة الحق معتزّين بمكانتهم وكبريائهم، تناولها الصغار بالجحود نظراً إلى كون كبارهم جاحدين لها !

ولقد دبر معارضو نوح مكائد عظيمة ضده ، من بينها دعايتهم المغرضة ! إن نوحاً قد جاء بما يتنافى مع ما كان عليه أكابرنا وهم ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وهؤلاء الخمسة كانوا أفراداً صالحين في قديم الزمان ، ثم وصل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى أن صاروا موضع الإجلال والتقديس لدى الأجيال التالية ، وبالتالي راحوا يعبدونهم باتخاذ أصنام وتماثيل ترمز إليهم ، ولقد كان من السهولة بمكانٍ أن يتم تحريك مشاعر العامة وتحريضهم ضد نوحٍ بأسماء هذه الرموز ، وقد استطاع الرؤساء بالفعل أن يجعلوه - عليه السلام - "مشبوهاً" في أعين الجماهير قائلين : إنه سائر في طريق آخر جديدٍ حائداً عن طريق أسلافنا الصالحين !

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

دَيَّاراً: أحداً يدور ويتحرك في الأرض.

تَبَاراً: هلاكا ودماراً.

يظهر من دعاء سيدنا نوحٍ هذا أن الفساد في عصره كان قد استفحل حتى بلغ منتهاه، حيث صار المجتمع بأسره خاضعاً لسيطرة العقائد الضالة والأفكار المنحرفة، وأصبح كل طفلٍ يولد في رحاب ذلك المجتمع يومئذٍ يرث جرثومة الانحراف الفكري والضلال العقائدي، ويتربى عليها ، وإذا بلغ مجتمع ما إلى هذا الحد من التدهور والانحراف، وطغيان الشر، فلا ينتظره بعد ذلك شيء سوى أن يُقضى عليه بطوفانٍ كطوفان نوحٍ !!